اليوتوبيا دراسة في الجغرافيا التخيلية

إعداد

الدكتور

محمد حسن عبد السلام

دكتوراه الفلسفة في الآداب – جامعة المنصورة

إصدار يوليو لسنة ٢٠٢٣م

شعبة الدراسات النفسية والإجتماعية

مقدمة:

إنّ الخيال ملكة عقلية للإنسان لم تخل منها معرفة، ولا فنّ، حتى أنّه أنشأ جغرافية متخيّلة تضاف إلى القارات والبحار الحقيقية، فقد رسم لها الخرائط، كما فعل روبرت لويس ستيفنسون عندما كتب "جزيرة الكنز". لقد ساعدته الخريطة التي رسمها من أجل تسلية ابن زوجته، وكي تكون منطلقًا ملهمًا لكتابة روايته. بهذه البساطة، ساعد رسم تخييلي لخريطة جزيرة في ولادة رواية، وكان لها الأثر الكبير على قرائها، وعلى الفنّ الروائي بشكل خاص.

ويمتلئ التراث العربي بالأمكنة الخيالية التي لم تطأها قدم إنسان إلّا في الخيال. وعندما نطالع المؤلّفات الجغرافية التراثية نلقى كثيرًا منها، وخاصة عندما تشحّ المصادر المعرفية أمام الجغرافي، فيعتمد على خياله في تكملة صورة المعمورة. لكن تلك الأمكنة المتخيلة لم تكن مقصودة لذاتها، فأي معطى معرفي واقعي جديد سيقصيها من حيز المعرفة والتداول، على العكس من رحلة عبدالله بن قلابة، الذي قاده بحثه عن جمله الضائع إلى الوصول إلى مدينة إرم ذات العماد، التي بناها شداد بن عاد. يسرد لنا التراث كيف بنى ذلك الملك الذي ملك الدنيا مدينته الساحرة بالذهب والفضة والجواهر، لكن تلك المدينة اختفت وأصبحت خرافة يتناقلها القاصون حتى عثر عليها ابن قلابة. ولكي يثبت صدقية روايته، حمل معه من جواهرها التي ما إن تكسرها حتى تفوح منها روائح المسك. سمع الخليفة معاوية بذلك، فاستقدمه ليقصّ حكايته، وليتأكّد منه، قام بسؤاله: "هل رأيتها في المنام، أم في اليقظة؟" فأجاب ابن قلابة، أنّه رآها في اليقظة، وأنّ الجواهر التي تفوح برائحة المسك هي دليل على صحة الرواية. لم يُعثر على المدينة على الرغم من أنّ ابن قلابة أشار إلى قربها من جبل عدن، فقد ظلّت مدينة خيالية.

كان سندباد "ألف ليلة وليلة" يزيد ولع الرشيد عبر مغامراته التي اكتشف فيها جزرًا وبلادًا وحوتًا على ظهره جزيرة، وطائر العنقاء، ووادي الماس، وكثيرًا

غير ذلك من أمكنة، وأشخاص، وكائنات متخيلة، وكذلك كانت حكايات شهرزاد، التي أقامت جغرافية خيالية لذاتها. فقد كان الهدف منها زيادة سعة وجود الإنسان، وقد كان أبو تمام يقول "اغترب تتجدّد"، فأصبح القول مع شهرزاد: تخيّل تتجدّد.

ومن هنا يمكن القول أن الجغرافيا الخيالية أو التخيلية هي فرع من فروع الجغرافيا تبحث في الأماكن الخيالية التي يبدعها القاص أو الروائي في عمله وتحاول التعرف على هذه الأماكن وتوزيعها والأسباب التي دفعت الروائي أو القاص لإنشائها وتخيلها في عالمه الافتراضي أو جغرافيته المتخيلة.

سعت الرواية جاهدة إلى مواكبة تحولات العصر، وحتى يتمكن الروائي من التعبير عن الأحداث وتصويرها إلى القارئ بطريقة جمالية ما عليه سوى اللجوء إلى العنصر العجائبي، الذي يأسر المتلقي ويخلق لديه نوعا من الدهشة، والحيرة، فيسعى جاهدا إلى فك شيفرات النص الروائي، ومن هنا فإنه يساهم في إعادة إنتاجه من خلال منحه دلالات متعددة، وفي الرواية العجائبية يصور الروائي عوالم جديدة تخضع إلى قوانين غير مألوفة، يكشف من خلالها عن خبايا المجتمع، وعن نظام الحكم والأوضاع التي يعيشها الشعب، وقد أولى الروائيون للرواية أهمية بالغة، وذلك لما تحمله من خصوصيات فنية تجعل النص الروائي يتميز عن غيره من النصوص الأخرى، كما ساعدهم هذا العنصر على الخروج من الكتابة النمطية المألوفة.

يعتبر "أفلاطون" أول من نظر لدولة يمكن القول عنها جمهورية مثالية، فهو يرى بأن الإنسان يجب غيره من أجل تلبية غاياته وتحقيقها، "فالدولة تنشأ بسبب عدم استقلال الفرد بسد حاجاته بنفسه وافتقاره لمعاونة أن يجتمع مع الآخرين".

وقد عبر الفلاسفة والمفكرون عن الفكر اليوتوبي في أشكال أدبية مختلفة كالقصة والرواية، القصيدة، المقالة، وقد أطلق على الأفكار الغارقة بالمثالية أو التي لا يمكن قبولها أو تطبيقها بالأفكار اليوتوبية.

أولا: لمحة عامة عن اليوتوبيا

إن شغف الإنسان بالجمال والفن والكمال والمثالية دفع به إلى محاولة تحسيد فكرة العالم المثالي أو الفردوس الأرضي، وهي فكرة راودت خياله فقد اقترنت لحظة بداية الحضارة البشرية بنموذج التمدن وخلق مجتمع يحمل القيم والمبادئ المثلى والرقي الحضاري، الذي لا يكون إلا من خلال نموذج المدينة الراقية التي تطمح إليها البشرية، وهذه الفكرة قد لازمت خيال الإنسان وهذا الأخير يلعب الدور الأكبر في بروز كل الأشكال اليوتوبية بدءا من "أفلاطون" في جمهوريته التي تعد النموذج الأول لكل اليوتوبيات إلى جانب النماذج الفردوسية التي قدمتها الديانات السماوية، وقد تناول الفلاسفة فكرة خلق مجتمع مثالي يوتوبي منذ زمن قديم، حيث كان حلمهم خلق مدينة يوتوبية تختفي فيها كل الشرور ويتفانى فيها الأفراد لتحقيق أهدافا سامية كالمساواة والعدالة وهناك اختلافات في معايير الخير والفضيلة، وهذا ما أعطى لليوتوبيات أبعادا اجتماعية، اقتصادية، سياسية، وقد عبر الفلاسفة والمفكرون عن الفكر اليوتوبي في أشكال أدبية مختلفة كالقصة والرواية، القصيدة، المقالة، وقد أطلق على الأفكار الغارقة بالمثالية أو التي لا يمكن قبولها أو تطبيقها بالأفكار اليوتوبية[1].

١-مفهوم اليوتوبيا :

اختلفت دلالات مصطلح اليوتوبيا ففي مفهومها اللغوي[2]:

تعد كلمة يوتوبيا من الكلمات الدخيلة على اللسان العربي، ولعل أقرب لفظة وكلمة لها من الكلمات العربية هي كلمة طوبى والتي تعني الطيب في أصله وقلبت الياء واوا لسكونها بعد الضمة وهي أيضا جمع الطيبة بالكسر وهو من نوادر الجموع.

---

[1] ينظر: أبو السعود، عطيات، **اليوتوبيا**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص١٥.

[2] ينظر: يوسف، آمنة، **السرد بين النظرية والتطبيق**، المؤسسة العربية للنشر، الأردن، ٢٠٠٥، ص١٢.

وقد ظهرت كلمة توبيا في البداية في عناوين لكتب مترجمة ولعل من أوئل هذه الكتب كتاب طوبيا والطوباويين وهي ترجمة من الدكتور أحمد خليل لكتاب (utopie et les utopiste).

أما في السياق القرآني فالكلمة التي تتقاطع في المبنى والمعنى جزئيا مع دلالات يوتوبيا هي كلمة طوبى التي ذكرها القرآن الكريم في عدة مواضع ومنها قوله تعالى: "**والذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب**".

ونلاحظ اختلاف المفسرين في معنى هذه الكلمة القرآنية وهذا ناتج عن دلالات معاني القرآن وقابليتها للانطباق على السياقات الممكنة، ولكن المعنى الذي اتفق عليه هو المعيشة والحياة السعيدة التي أعدها الله لعباده المخلصين أي الجنة وهي حقيقية، أما اليوتوبيا فهي تصوير إنساني للجنة وهي حلم.

وجاء في الميزان تفسير الكلمة: "طوبى على وزن فعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهي صفة لمحذوف وهو على ما يستفاد من سياق الحياة أو المعيشة وذلك أن النعمة كائنة ما كانت إنما تغتبط وتهنأ إذا طابت للإنسان ولا تطيب إلا إذا اطمأن القلب إليه وسكن ولم يضطرب".

ومن التعاريف اللغوية السابقة يمكن القول أن كلمة "يوتوبيا" كلمة غريبة عن اللسان العربي وما يقابلها في المعاجم اللغوية العربية كلمة "طوبى" والتي تحمل المعنى الأقرب لها وهي تعني الحياة الكريمة والمعيشة السعيدة المثالية المغدقة بالخيرات والنعم.

أما من الناحية الاصطلاحية:

يعتقد بعض المتخصصين في الدراسات اليوتوبية أن لفظة "ايتوبيا" ترجمة للكلمة اللاتينية "Nusquama" المشتقة من "Nusquan :lenulle–part" والترجمة الحرفية للمصطلح تشير إلى أن دلالة الكلمة هي "اللامكان" أو "لا مكان له" أو "ما لا أين له"، ومعناها المكان الذي لا وجود له في أي مكان[1].

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٢٢.

فاليوتوبيا هي تصور لمكان لا يمكن إدراكه في الواقع، وهي كل ما لا يتصل بالواقع ولا يمكن تحقيقه أي هي ذلك المكان المثالي الرائع الموجود في عالم الخيال والأحلام.

واليوتوبيا نحت لغويا، وبدأت في السياق الإنجليزي (utopia) وقد جاءت من اللغة الإغريقية واعتمدت فيها هذه اللغة كأرضية اشتقاقية، وهي تركيب بين كلمتين، من كلمة (ou) وتعني (No) أي اللا، وكلمة(topos) التي تعني مكان (place)،والكلمة تعني(No place)وتصبح اليوتوبيا ليست مكانا، أو اللامكان.

انطلاقا من هذا التعريف يمكن القول بأن كلمة يوتوبيا تدل على تصور مكتنز بالمثالية والكمال، وهي فكرة يصعب تطبيقها على أرض الواقع لذلك تبقى معلقة في خيال وأحلام متصوريها بما تحمله من المثالية واللذة العظمى.

وقد ظهرت لفظة اليوتوبيا في الفكر اليوناني القديم: «الكلمة يونانية الأصل، وتدل على ما يوجد في أي مكان ويراد بهاكل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها»

والأتوبيا تطلق أيضا على المثل العليا السياسية والاجتماعية التي يصعب تحقيقها:«تدل عبارة الاتوبيا في الوقت نفسه على نوع أدبي وعلى نوع من السياسة الخيالية، وكذلك على تحقق شكل من التنظيم الاجتماعي غالبا ما يكون إكراها وأحيانا فظا،يفترض أن يجسد فيه مثال يشتهر بأنه جيد بصورة مطلقة»[1]

وقد حدد عبد المنعم حنفي في الموسوعة التي أصدرها معنى كلمة يوتوبيا حيث قال: أنها مجرد تخيلات لا تتصل بالواقع المعاش، فهي تعني مكان غير واقعي من خيال المؤلف أو الكاتب ولا تمت للواقع بصلة.

فاليوتوبيا حسب هذا المفهوم هي المكان المناقض للواقع.

[1] ينظر: شاهين، أسماء، **جماليات المكان في الرواية العربية**، دار فارس، عمان، ٢٠٠١، ص١٤.

وتتفق وجهة النظر هذه مع وجهة نظر المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية والذي عرف اليوتوبيا بأنها: كل نظرية أو فكرة لا تمت للواقع الذي نعيشه وفي الغالب لا يمكن الوصول إلى تحقيقها، فهي أشبه بالخيال.

ويبقى الفكر اليوتوبي هو ذلك الفكر البعيد عن الواقع المعاش الذي يطمح الإنسان إلى تحسيده على أرض الواقع بجميع أبعاده، رغم أنه في نظره لا يزال بعيد المنال.

٢. أعلام اليوتوبيا

١.٢/ في العصر القديم:

يعتبر اليونانيون القدامى أبرز من تميز بالفكر الفلسفي والسياسي، فقد اشتهروا بالأساطير وتصور الدول المثالية الخاصة سواء بالماضي الأسطوري أو المستقبل، بالإضافة إلى فن الحكمة، وهذا ما ألهم كتاب الفكر اليوتوبي ومؤسسي المجتمعات المثالية، ومن أبرز من كتب في الفكر اليوتوبي في العصر القديم نجد "أفلاطون" (platon) الذي عاش قبل الميلاد بحوالي أربع مائة سنة، وذلك في كتابه "الجمهورية"؛ حيث آمن بضرورة الالتزام الأخلاقي ويعتقد أن تنظيماته متوافقة مع قانون الطبيعة حيث يقول في جمهوريته: «إن الحقيقة التي أقرتها الطبيعة هي أن المريض سواء كان غنيا أم فقيرا، ينبغي عليه أن ينتظر على باب الطبيب»[١]

و"أفلاطون" خلال جمهوريته التي بناها يسعى إلى تحقيق عالمه المثالي الذي لا يقبل فيه سوى بالمثل العليا، وقد أدرك "أفلاطون" العلاقة بين الفن والأخلاق؛ أي بين الفن والسياسة ودافع عن الحقيقة والجمال ،وأراد المحافظة من على الدولة من التأثير الضار أي الفن الحر، حيث أنه قد طرد بعض الشعراء من جمهوريته المثالية الفاضلة.

[١] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٣٠ .

ويعتبر "أفلاطون" أول من نظر لدولة يمكن القول عنها جمهورية مثالية، فهو يرى بأن الإنسان يجب غيره من أجل تلبية غاياته وتحقيقها، فالدولة عنده تقوم بسبب عدم قدرة الفرد على سد وتوفير احتياجاته مما يدفعه للتعاون مع الآخرين لتحقيق ذلك.

والغاية من نشأة الدولة بالنسبة لأفلاطون تحقيق الحكمة والفضيلة ومن هنا يكون دور الدولة أوالوظيفة الأولية للدولة هي الوظيفة التربوية، فأفلاطون يسعى من أجل أن يجد مجتمعا مثاليا خاليا من الفساد تحكمه أخلاق سامية وحياة سعيدة وقد أسس "أفلاطون" جمهوريته بصورة نموذجية للمجتمع المدني اليوتوبي ويعبر عنه في قوله: «والآن ألا توافقني أن خطة دولتنا ودستورنا ليس مجرد أوهام وأنه إذا كان تحقيقها صعب فهو ممكن.

٢.٢/ الفارابي:

يعتبر "الفارابي" من أهم المفكرين العرب الذين تطرقوا إلى المدينة الفاضلة المثالية، وذلك من خلال كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة"، فهو يرى بأن الإنسان مدني بطبعه ويميل إلى العيش في مجتمع وهذا فطري فيه، فهو لا يستطيع أن يحقق كماله بنفسه ، وقد أطلق "الفرابي" على الإنسان لقب "الحيوان المدني"؛ فالإنسان في مفهومه مضطر بطبيعته إلى الاجتماع مع غيره من بني جنسه من اجل تحقيق كماله لان الاجتماع هو وسيلة لتحقيق كماله وليس غاية.

فالاجتماع عند "الفرابي" أمر جبل عليه الإنسان بطبيعته التي فطره الله عليها، فالمدينة المثالية عند "الفرابي" هي تلك التي يجتمع فيها البشر في نظام مدني، حيث نجد "الفرابي" في كتابه "آراء أهل المدينة" يقول: «وكل واحد وجد من الناس مفطور على أنه محتاج غيره في أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء لا يمكنه أن

يقوم بها كلها وحده بل يحتاج (...) فيجتمع مع الجماعة إلى أن يبلغ الكمال ولهذا كثرت التجمعات الإنسانية»[1].

فالإنسان مدني بطبعه ويحتاج أن يبني مجتمعا خاصا به، فهناك عدد من الأشياء والمهام التي لا يمكن للإنسان القيام بها بمفرده، بل هو في حاجة لمن يساعده فهو يحتاج لجماعة من الناس للقيام بذلك.

إن المجتمع المثالي في مدينة "الفرابي" الفاضلة يقوم على التعاون وتقسيم العمل وتبادل الحاجات لأن الناس يحتاجون لبعضهم البعض «فالعمل من أجل تحقيق غايات المجتمع واهدافه يحقق الكمال لأفراده والسعادة ،فالفرد هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع ولولا وجوده لما ظهر التجمع البشري أو بمعنى آخر المجتمع»

فالكمال والمثالية التي يسعى الإنسان لتحقيقها في مدينة "الفرابي" تكون من خلال التعاون بين أفراد المجتمع، فلولا التعاون بالنسبة له لما كثرت الجماعات ولما عمرت الأرض، والتعاون يكون طلبا لسعادة مجتمع المدينة أو الدولة المثالية الفاضلة عند الفرابي ، فهذا التعاون بين أفراد المدينة لا يخرج عن دلالات مفهوم الغير الأسمى والسعادة المطلقة التي يحققها الإنسان، فالفرابي يطمح إلى المدينة الفاضلة التي تقوم على الكمال من خلال التعاون وتقسيم العمل بين أفراد المجتمع يقول: «لا يمكن أن للإنسان الكمال إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد ببعض التعاون ما يحتاج إليه قومه»، أي أن الناس جميعا لكي يعيشوا في عالم الكمال عالم المثل (أي المدينة الفاضلة) يجب أن يسعوا إلى مساندة بعضهم والتعاون من أجل تحقيق الرقي والسمو نحو الأفضل نحو المثالية[2].

---

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٣٤.
[2] ينظر: فهمي، أحمد، **تقنيات السرد الروائي**، دار ابن رشد، الكويت، ٢٠١٧، ص١٩.

٣.٢/ توماس مور (Tomas More):

يعتبر المفكر الانجليزي "توماس مور" (١٤٧٨/١٥٣٥) أول من استعمل مصطلح "يوتوبيا" في روايته التي حملت اسم المصطلح، وتتألف الرواية من كتابين لا يعرف أي منهما كتب قبل الآخر، وفي الأول منهما قدم وصفا واضحا للجزيرة التي تتكون من (٥٤) مدينة متساوية في عدد السكان والمنشآت، ولأهلها قوانين وعادات مشتركة ويقوم النظام المثالي في الجزيرة على العدالة التي لا تتحقق إلا عن طريق اشتراكية الحياة وإلغاء الملكية الخاصة، أما الثاني فيحتوي على وصف للحياة في الجزيرة وليوميات السكان ولنظام الحكم ونظام العمل والحياة الاجتماعية ويتطرق في هذا الجزء إلى الأسس الفلسفية للحياة.

ومن خلا هذه الرواية يريد "توماس مور" أن يبرز ملامح المدينة المثالية التي توجد في مكان ما في هذا العالم، يريد أن يصور الحياة المثالية التي يتعين على بني البشر أن يعيشوها، وصفات الملك المثالي، فاليوتوبيا عند "مور" مشروع تجديدي للوضعية السياسية المعقدة في إنجلترا خصوصا وأوربا عموما من خلال العدالة والمساواة، من خلال نظام سياسي مؤسس على حكمة متعالية يقول"مور": "ويشغل الحاكم منصبه طول حياته، ما لم يعزل إن اتهم بالميل للطغيان، أما الرؤساء الأوائل فينتخبون سنويا ولكنهم لا يستبدل بهم غيرهم إلا لسبب قوي"[١]

فهو من خلال هذا القول يصور لنا نظام الحكم في العالم المثالي الذي تطمح له أي دولة يوتوبية، التي يكون فيها الحاكم مجرد صورة شكلية فقط فوجوده يماثل عدمه.

ففضاء عالم المواطنين في مجتمع فضاء أخلاقي والعلاقات الاجتماعية بينهم مبنية على السلوك الأخلاقي التلقائي والطبيعي فيهم ، وهو يؤكد ذلك في قوله:

---

[١] ينظر: وافي علي، آراء **أهل المدينة الفاضلة**، در ابن خلدون، بغداد، ١٩٩٩، ص٢٣.

«فإذا نشأ خلاف بين فردين من أفراد الشعب وقلما يحدث ذلك، فإنهم يسوونه من دون إبطاء».

فهو يؤكد أن عالم المثل عالم المدينة الفاضلة التي يسعى إليها لا وجود لنزاع أو صراع بين أفرادها ، والتصادم بينهم نادر فهو يسعى إلى مجتمع راق مثالي وهو ما يصطلح عليه بالمجتمع اليوتوبي، فتحقيق العدل والمساوة بين سكان المجتمع اليوتوبي شئ واضح وبديهي ولا يحتاج إلى برهان.

وفي كتابه "يوتوبيا" يخاطب الكاردينال فيقول: "إن أغنامكم التي اعتادت أن تكون أليفة معتدلة الطعام.. أصبحت شرهة مفترسة، تلتهم الرجال أنفسهم وتد عر حقولا ومنازلا ومدنا بأكملها وتلتهم سكانها"[1]

فمور يرفض الملكية الفردية في مدينة يوتوبيا، حيث أن الأنانية وتحقيق السعادة الفردية هي مبادئ المجتمعات غير اليوتوبية، حيث يشبه "مور" أصحاب الملكية الفردية بالأغنام التي تنهب أموال العمال الفقراء والقضاء على أصحاب الملكية الفردية هو نيل للعدالة والمساواة الإتوبية،فهو يبحث عن المجتمع الفاضل الذي يحمل قيمة أخلاقية، قيمة التسامح والتعايش بين الأديان يقول: "فإن الجميع ما عدا هم من اليوتوبيين، وعلى الرغم من اختلاف عقائدهم إلا أنهم يتفقون في شئ واحد وهو أن هناك إله حكيم وواحد خلق الكون ودبره بحكمته ويدركونه جميعهم بلغة بلادهم "ميترا" إلا أن نظراتهم تختلف من شخص لآخر".

فالمجتمع اليوتوبي في نظر "توماس مور" يستقبل اختلاف العقائد وهذا أمر عادي، أي معتقد مهما كان مثيرا للرفض أو الكره ، وهو يرى أن القيام برعاية وتربية مواطني مدينة يوتوبيا شئ مهم وضروري لبناء المجتمع المثالي، فتنشئته الأخلاقية ضرورية وبذلك يكون "مور" قد سعى لإيجاد عالم مثالي تحكمه العدالة والمساواة والقيم المثلى، فهو يطمح لإيجاد دولة مثالية أو خلق مجتمع يوتوبي، وهذا

[1] ينظر: يوسف، **السرد**، ص١٧.

ما أكده من خلاله روايته "يوتوبيا" التي ترجم فيها مبادئ وأسس الفكر اليوتوبي الذي طمح لتحقيقه في مجتمع إنجلترا خاصة وأوربا بصفة عامة[1].

٤.٢/ توماسو كامبنيلا (Tommasso Campanelle):

يعتبر الإيطالي "توماسو كامبنيلا" من أبرز كتاب الأدب اليوتوبي، حيث ألف كتاب "مدينة الشمس" (The City of Sun) والذي يعد من أهم الكتب التي بينت الفكر اليوتوبي بعد كتاب "يوتوبيا" لـ "توماس ور" في عصر النهضة، حيث يصف من خلاله مدينة الشمس وذلك عن حوار بين البحار والفارس، والحياة في هذه المدينة تخضع لقوانين ليس لها نظير على الكرة الأرضية، وهي بالتالي تحقق التصور الذي يتخيله لمدينة فاضلة ومجتمع مثالي فيوتوبية كامبنيلا قد تميزت بتفردها عن اليوتوبيات السابقة ، كونها تعتمد وتقوم على العلوم التي تساهم في تطورها وتحقيق الازدهار الداخلي لها، وتؤثر بصفة كبيرة على الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة الشمس، حيث أن دراسة هذه العلوم تحتل مكانة مهمة وعالية في مجتمع مدينة الشمس «يتعلم كل فرد جميع أنواع الفنون، وبعد بلوغ الثالثة من العمر يتعلم الأطفال اللغة وحروف الأبجدية بالمشي حول الحوائط في أربع صفوف (...) وبعد سن السابعة يتلقى الأطفال دروسا في العلوم الطبيعية وعندما يصبحون كبار السن يدرسون الرياضيات والطب وغيرهما من العلوم...»

وبذلك دعا كامبنيلا إلى تصور مدينة مثالية أساسها العلم والمعرفة، اللذان يجعلان من مجتمعها مجتمعا متفردا بالمثالية اللامحدودة، حيث أن كامبنيلا قد أعلى من شأن العقل وأخذ بمبادئ العلم والإيمان اللامحدود بأن التقدم يكون من خلاله، وبه تتحقق السعادة المدنية ويسعى "توماسو كامبنيلا" إلى تكوين مجتمع تحكمه العدالة والمساواة ويظهر ذلك جليا من خلال قوله: «ويقول الناس في "مدينة الشمس" إن الفقر يخلص اللصوص والدهاء والكذابين والمشردين وإن الثورة تخلق الغرور والجهل والطغاة، ولكن أفراد المجتمع الحق ينشأون من الغنى والفقر معا

[1] ينظر: وافي، آراء، ص٦٥.

فهم أغنياء لا يريدون شيئا، فقراء لا يملكون شيئا، ونتيجة ذلك أنهم ليسوا عبيدا للظروف وإنما الظروف هي تخدمهم»

حيث أن "كامبنيلا" يبرز من خلال هذا القول التنظيم الاجتماعي لمدينته اليوتوبية، فجميع أفراد المجتمع يعيشون في مساواة مطلقة ولا توجد ملكية خاصة ، وكل فرد ينال حقه بالتساوي وما يكفيه لتحقيق السعادة ويؤكد "كامبنيلا" أن الفقر هو ما يجلب الكذابين واللصوص ووجود طبقات غنية أخرى يزيد من فساد المجتمع ولا يحقق المثالية بداخله، فهو يرى بأن إزاحة الملكية الخاصة والتساوي بين الجميع في الأكل والشرب والملبس وفرص العمل هو ما سيقضي على فساد هذا المجتمع ويحقق السعادة والعدالة المثلى.

ويرى "كامبنيلا" أن حاكم مدينة الشمس يجب أن يكون شخصا فريدا ومتميزا لديه إطلاع واسع على التاريخ وعلى معرفة واسعة بكل الثقافات والعادات التي تخص الشعوب والمجتمعات، كما يجب أن يكون ملما بكافة العلوم والمعارف ومختلف أنواع الفنون وعلى معرفة بكل اللغات، ويسمى هذا الحاكم "ميثافيزيقوس" أي الإمبراطور الروحي أو هو السلطة البابوية، ويساعد في الحكم ثلاثة حكام يمثلون القوة، المعرفة، الإرادة «إن الحاكم الكبير كاهن يدعونه "هو" وإن كان علينا أن نسميه "الميثافيزيقوس" (Metaphysic) وهو على رأس الجميع، يمسك بزمام الأمور الروحية والزمنية ويشرف على كل الأعمال ويضع كل القوانين باعتماده السلطة العليا»[1].

أعطى "كامبنيلا" لونا آخر للنظام السياسي في مدينته المثالية فمنصب الحاكم هو منصب خاص لا يمكن الحصول عليه ببساطة، فهو يشترط المعرفة المطلقة بكل المعارف والعلوم بل بكل المناصب العليا داخل المدينة،و تعطى صفة النبل للحاكم من خلال إلمامه بقدر كبير من المعارف، فقد سعى "كامبنيلا" إلى تجسيد مدينة خيالية مثالية يسودها الحب والعدالة والوئام والتكافل، حيث أن كل شيء

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٤٥.

بداخله يسير بطريقة مثالية، حيث تختفي النزعة الأنانية وحب التملك الفردي، بل الجميع متوافق على نبذ المصلحة الخاصة في سبيل المصطلحة العامة.

يمكن أن نعتبر مصطلح "الديستوبيا" الذي يصور به مدينة الفساد والخراب قد يبرز كرد فعل نقيض لمصطلح "اليوتوبيا" الذي يجسد المدينة الفاضلة المثالية والسعيدة، وقد انتشر ولقى رواجا كبيرا في مجال الأدب حيث أدرجه الأدباء والكتاب في أعمالهم الفنية وعبروا به عن واقع الشعوب المظلم، وتشترك اليوتوبيا مع الديستوبيا في كونهما عالمين خياليين يجسدان ثنائية التناقضات الصارخة التي وجدت منذ ظهور البشرية؛ فالجمال يقابله القبح والموت تقابله الحياة والنور يقابله الظلام والفساد والبؤس تقابله المثالية والسعادة.

ثانيا: يوتوبيا أحمد خالد توفيق

كتب الدكتور أحمد خالد توفيق روايته "يوتوبيا" عام ٢٠٠٨ ولكنه يقدمها على أنها نظرة مستقبلية لما ستؤول إليه مصر عام ٢٠٢٣ حيث تحولت حياة الإنسان في مصر إلى لعبة بيد الأغنياء والمترفين، وأصبحت بذلك قيمة الإنسان في يوتوبيا لا تساوي شيئا؛ لأن مصر تصبح عبارة عن عالمين مختلفين، عالم الأغنياء المسمى "يوتوبيا" الذي يقع في الساحل الشمالي والذي يحرسه حراس المارينز من كل جهة، ولعالمهم قوانين خاصة بهم، وعالم الفقراء المسمى "الأغيار"، وقسم الدكتور أحمد خالد توفيق روايته "يوتوبيا" إلى أجزاء بعنوانين: الأول "الصياد"، والثاني "الفريسة"[١].

إذا كانت أغلب الروايات قد نحت منحى الوصف والتوثيق فكانت صورة المعمار فيها شديدة الإيهام بالواقع، فإن رواية " يوتوبيا لأحمد خالد توفيق، تنشئ منذ العنوان مع القارئ عقدا يصرح بأنها سترسم معمارا افتراضيا زمنه المستقبل أو اللا زمن، لتتنبأ بذلك بما ستكون عليه الحياة وبالاستتباع هندسة الفضاء وهيئة العمارة في المستقبل.

[١] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٢٧.

إن" يوتوبيا " رواية مستقبلية انطلاقا من عنوانها وبناء على أن زمن أحداث المغامرة فيها هو سنة ٢٠٢٣، أي بعد عقد ونصف من زمن كتابتها (٢٠٠٨). فكيف سيكون معمارها؟ وهل سيكون المعمار فيها مستقبليا أيضا؟

في الصفحة الرابعة عشر من الرواية نقرأ على لسان علاء: "قال (الجراح الإسرائيلي) لي إن أباه قد حدث له جرح في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ والتي دارت بينهم وبين المصريين وسألني إن كنت أذكر شيئا عن الموضوع فقلت له حينها كان لي عم مات في هذه الحرب ولكن لا أتذكر أو أعرف تفاصيل ذلك فقد مر عليها (٥٠) سنة"

تلك إشارة إلى أن زمن أحداث القصة هو سنة ٢٠٢٣. وبناء على أن الرواية نشرت سنة ٢٠٠٨ تكون "يوتوبيا" رواية مستقبلية تستشرف زمن لم يحن بعد وتحكي المحتمل وما قد يحدث بل هي تحكي ما سيقع فعلا. فالكاتب يقول في تصدير الرواية: "أن هذه المدينة يوتوبيا مكان خيالي وكذلك ما بها من شخصيات ولكنه يؤكد أن هذا المكان قريبا سيكون موجود"[١].

إنها ترسم "الواقع" الذي نحن سائرون إليه على مستوى العلاقات ونمط الحياة ورؤى العالم ووضع المعمار أيضا (شوارع، مبان، أحياء..) لكونه جزءا من المنظومة الثقافية والبيئة الاجتماعية والاقتصادية..

١- معمار الرواية:

إن " يوتوبيا"، كسائر الروايات، عمارة اختار لها مؤلفها قالبا/ هيكلا خارجيا وطريقة في بناء الأحداث ورسم الشخصيات ونسج الخطاب وتنظيم عناصر الفضاء على نحو يعبر عن "رؤية للعالم" مخصوصة سمتها المأساوية والغرائبية بسبب الصراع الحاد والتضاد الصارخ بين مكونات الواقع الاجتماعي والسياسي..

[١] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٣٩.

في هذا القسم الأول نكتفي بالوقوف على هيكل الرواية الخارجي وعتبات النص وأشكال من التناص فيه... هي كلها، في رأينا، بعض تجليات لمعمار الرواية على مستوى الخطاب[1].

١-١: الهيكل العام:

قسم المؤلف روايته إلى خمسة أجزاء معنونة تضمن كل جزء عددا من الفصول:

	الصفحات	العنوان	عدد الفصول
الجزء ١	٥٩.٩	الصياد	٥
الجزء ٢	٩١.٦١	الفريسة	٤
الجزء ٣	١٢٧.٩٣	الصياد	٤
الجزء ٤	١٥٧.١٢٩	الفريسة	٤
الجزء ٥	١٩٢.١٥٩	الصياد	٥

يلاحظ الناظر أن هيكل الرواية قام على مبدأ التوازن (عدد الصفحات) والتناوب (العناوين) والتكرار (العناوين وعدد الفصول) والتناظر (العناوين وعدد الفصول)... وهي مبادئ وقواعد أساسية في المعمار والزخرفة تنظم التكوينات والعناصر وتعطي العمل توازنه وجماله وفرادته.

فإلى أي مدى يعكس هذا التنظيم الهندسي الخارجي توازنا سياسيا وانسجاما اجتماعيا؟

١-٢: رواة الحكاية:

تقوم الرواية على عدد من المسارات الحدثية. بيد أن الرئيسي الذي يمثل عمودها الفقري هو[2]:

وضع بداية: زهد علاء في الحياة بسبب الوفرة والبحث عن أشكال جديدة للتسلية

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص ٤٠.
[2] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٤٦.

وضع تحول: مغامرة الموت (الرحلة إلى عالم الأغيار لصيد البشر) ومحنة الأسر (ومحاولات متبادلة للتشفي) ومشاق رحلة العودة (مساعدة جابر..)

وضع نهاية مفتوحة: النجاة (وقتل جابر..) وتجدد المواجهة (والاستعداد للدفاع..)

ترابطت هذه الحلقات وتلاحقت في الزمن تلاحقا لا تعقيد فيه، لتسم معمار بناء الأحداث بالبساطة والوضوح. غير أن هذه المعمار الثلاثي البسيط كان قادرا على أن يخلق في القارئ تشويقا، فيحرضه على القراءة لتكتمل عنده صورة الرواية وأطروحتها. وبذلك تنفتح أمامه أبواب جحيم أرضي غريبة فضاءاته ومفجعة أحداثه ومأساوية مصائر الناس فيه.

ولقد نهض بسرد الحكاية راويان (هما علاء وجابر) اختفي ورائهما الكاتب الذي اختار أن يوزع الدور عليهما في تناوب، غير أنه لم يكن تناوبا يحقق فكرة الديمقراطية بقدر ما كان يعمق فكرة التضاد والمواجهة.

	علاء	**جابر**
عدد الأجزاء	٣	٢
عدد الفصول	١٤	٨

إن منطق القوة والغلبة هو "المنطق" الذي يحكم علاقة الهامش بالمركز جغرافيا، ويحكم علاقة الطبقات الاجتماعية بعضها ببعض اقتصاديا وسياسيا.

وإن بنية الأحداث التي تشد فيها الحلقة الحلقة ونظام السرد الذي يوحي بالتوزيع العادل (الديمقراطية) يخفيان بنية اجتماعية هشة ونظاما قيميا مختلا وفاسدا لم تمثله الرواية بما هو واقع راهن، هكذا ادعت، بل بما هو مآل ومصير. وهو ما يبرر اعتبارها رواية تنبؤية مستقبلية[١].

[١] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٥٧.

١-٣: التعالي النصي transtextualité في الرواية:

لا يمكن عزل نص ما عن مدونة من النصوص سبقته أو تزامنه. هذه حقيقة لم تعد مجال شك، ففي كل نص تحضر نصوص، عن قصد وعن غير قصد، بمستويات وعلى أنحاء مختلفة صريحة وضمنية، فتتعالق وتتحاور وتثري معماره ودلالاته. ولذلك فالنص تناص. يقول رولان بارت: "إن كل نص نص جامع تقوم في أحنائه نصوص أخرى في مستويات متغيرة وبأشكال قد نتعرفها إن قليلا أو كثيرا: هي نصوص الثقافة السابقة والثقافة الراهنة".

فالنص ملتقى نصوص وأصوات ورؤى، تتحاور وتتصارع فتمنح عالمه انفتاحا وفرادة. والناظر في رواية "يوتوبيا" يتعرف دون عناء على أنواع من التعالي النصي تتجلى فيها ملامح من معماريته، نكتفي منها بمظاهر من النصية المصاحبة (العتبات) paratextualité والتناصية intertextualité.

١-٣-١: العناوين نصوصا مصاحبة:

يعد العنوان أحد مظاهر النصية المصاحبة. وهو عتبة رئيسية تقف بين المتن والعالم خارج النص، تنهض بوظائف التعيين والوصف والايحاء والإغواء. وهو عقد بالإضافة إلى علاقته بالمتن وبما جاوره من عتبات، يؤثر في التلقي ويوجه القراءة[١].

العنوان الرئيسي:

إن "يوتوبيا" عنوانًا لا شك يرتبط بعلاقات وطيدة مع المتن، ولكنه يستدعي أيضا مؤلفا مشهورا هو "يوتوبيا" لتوماس مور Thomas Maur لنكون إزاء نصين ينتميان إلى حقل الأدب. وهو ما يثير في القارئ عددا من الأسئلة عن العلاقة بين يوتوبيا الرواية ويوتوبيا المدينة الفاضلة. فهل أن المدينة في يوتوبيا أحمد خ توفيق فردوس أرضي أم أنها مدينة قبيحة تخيب التوقع الأول؟

[١] ينظر: وافي، آراء، ص٧٣.

وعلى هذا النحو يصبح العنوان مصيدة إذ يبرم معنا، نحن القراء، عقدا غامضا بقدر ما يولد فينا التشويق يخلق فينا الحيرة.

وتفرض فكرة كون العنوان مصيدة نفسها إذا وصلناه بعناوين الفصول: الصياد والفريسة. فالصياد لكي يوقع الفريسة ينصب لها، كما هو معلوم، مصيدة وفخا. أليس الكاتب، كل كاتب، على نحو ما صيادا فريسته القارئ؟

إن لـ " يوتوبيا "، عنوانا، وظيفة تعيينية. فهذه اللفظة اسم يسمي. ولكنه يسمي شيئا متخيلا غير متعين، أي شيئا واسع الدلالة قابلا لأكثر من معنى. فيوتوبيا هي اللامكان وهي الخيال والحلم والمستحيل، ولكنها أيضا المكان وقد اكتمل فصار فردوسا على الأرض[١].

كيف يكون المعمار، إذن، في اللامكان وفي الحلم؟ وكيف يكون في المكان إذا اكتمل وصار مثاليا؟

هل ستجرب يوتوبيا أحمد خالد توفيق أن تكون تجسيدا ليوتوبيا " توماس مور" كما حوالت بعض السرديات أن تجسد، مثلا، عوالم الجنة، أم أنها ستسخر من الفراديس والجنان وتتهكم، فتصف لنا عالما ديستوبيا عمارته خرائب وأطلال والحياة فيه شر مطلق؟

تلك بعض الأسئلة التي يثيرها العنوان خاصة وأن الرواية اليوتوبية التي أرسى دعائمها توماس مور لم تظل مكانا مرغوبا فيه مثاليا فيه تتحقق أحلام الإنسان بالسعادة والكفاية والخير.. بل صارت في كتابات لاحقة تجسيدا لمساوئ عالم الواقع بشكل مفرط وذلك على سبيل التحذير والتبصير بما يهدد الإنسانية من أخطار كما هو الحال في "عالم جديد جميل" لألدس هسكلي و"١٩٨٤" لجورج أورويل مثلا[٢].

---

[١] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٨٤.
[٢] ينظر: يوسف، **السرد**، ص٧٤.

العناوين الفرعية:

عنون أحمد خالد توفيق أجزاء روايته ووزعها على راويين اثنين أحدهما من يوتوبيا والثاني من محيطها (عالم الأغيار). يوضح الجدول هذا التوزيع:

	عنوان الفصل	الراوي	الانتماء
١	الصياد	علاء	يوتوبيا
٢	الفريسة	جابر	عالم الأغيار
٣	الصياد	علاء	يوتوبيا
٤	الفريسة	جابر	عالم الأغيار
٥	الصياد	علاء	يوتوبيا

يلاحظ قارئ الرواية أن علاء وجابر يشتركان في كونها بطلي الرواية "المثقفين" (يقرآن الكتب، ويفكران في "ما بعد الجنس")، وفي كونهما عونين سرديين نهضا بوظيفة السرد، غير أنهما يختلفان ويتناقضان تناقض الصياد والفريسة. ولقد صرحت عناوين الفصول بذلك. فالفصول التي رواها علاء حملت عنوان "الصياد"، في حين حملت الفصول التي رواها جابر عنوان "الفريسة". ويبدو للناظر، دون كثير عناء، أن الصياد في هذه المعمارية يطوق فريسته ويقبض عليها من قدام ومن خلف.

ولما كانت الشخصيات رموزا للفئات والطبقات الاجتماعية التي تنتمي إليها فإن هذه الارتباطات تكشف، لا شك، عن طبيعة العلاقة لا بين فردين بل بين طبقتين (الأغنياء # الفقراء) وبين فضائين (المركز # الهامش). وهي علاقة تقوم بالأساس على مبدأ القوة والاستئثار والاقصاء[١].

لقد استأثرت الطبقة التي ينتمي إليها علاء بأسباب الثراء وبأنواع المتع، في حين حرمت الطبقة التي ينتمي إليها جابر من فتات يسد الرمق. وحكم العلاقة بينهما منطق القوة والتسخير.

[١] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٧٨.

ولقد تجلى ذلك، كما هو واضح، في مستوى معمار الرواية حيث احتل الصياد المركز (الفصل ٣) وأطبق على فريسته من أعلى (الفصل ١) ومن أسفل (الفصل ٥).

إنها المصيدة التي أوحي بها العنوان الذي اتسعت دلالاته، كما أشرنا إلى ذلك، وهي المصيدة التي ستكون حلقة في مسار بناء أحداث الرواية، وهي المصيدة التي تنبه إليها هذه الرواية التنبؤية وتحذر من الوقوع فيها.

١-٣-٢: التصدير: Epigraphe

يمثل التصدير عتبة من جنس خطاب الاستشهاد تنهض بوظائف أساسية في بناء معنى النص وتداوله، كتلخيص النص أو التعليق عليه أو الإيحاء بموضوعه، ولذلك فهي تنشط فعل الاستقبال وتوجيهه.

ولقد اختار أحمد خالد توفيق مقتطفا من نص لبريشت Bertolt Brecht (شاعر ومسرحي ألماني ت ١٩٥٦، ملحمي الأسلوب. أدبه ملتزم بالقضايا العادلة..) صدر به روايته:

" حقا إنني أعيش في زمن أسود / الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها/ الجبهة الصافية تفضح الخيانة / والذي مازال يضحك / لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب / أي زمن هذا؟ "

يقف هذا النص شكليا خارج متن الرواية، بيد أن الأطروحة التي يحملها تجد لها صدى في عالم الرواية على لسان جابر الأغياري (وليس الغيري في نظر سكان يوتوبيا فالغيري آخر Autre يعترف له المختلف عنه بإنسانيته، أما الأغياري فهو في رأي الآخر شيء)[١].

[١] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٩٧.

يقول جابر:

"كانت هناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن ينتبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق [...] أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان.. فلماذا لم يفعل أحد شيئا؟ لأن الجميع تواطأ علينا.. "

يردد هذا القول وأقوال أخرى صدى أغنية بريشت. ففي النصين توصيف للواقع وتنبيه إلى ما سيحدث ودعوة، إن صريحة أو ضمنية، إلى فعل ينهي هذا الانحدار والسقوط.

ويكشف استدعاء بريشت عن الإطار الإيديولوجي الذي تشكلت فيه رؤية الكاتب. ولذلك فهو في رأينا نص مرجع وجه الرواية ونزلها منزلة الأدب الملتزم المقاوم لأشكال العبودية الجديدة[1].

ولا شك أن ذلك التصادي بين نص بريشت ومقول جابر يكشف عن انحياز الكاتب إلى شخصية جابر التي حافظت، رغم السقوط، على ما به ظلت كائنا إنسانيا.

١ – ٤: تناصية التضمين:

من معاني التضمين الإيداع. وهو في الخطاب أن يودع المؤلف خطاب الشخصية معنى أو نصا (جملة، فقرة..) ويجعلهما فيه على نحو ظاهر أو مخفي خفاء يجعل التنبه إليه عسيرا.

والناظر في رواية يوتوبيا يلاحظ وجود اقتباسات وتضمينات صريحة ساهمت في بناء صرح خطاب الشخصيات وتعميق دلالتها. من ذلك مثلا:

نصوص شعرية لعبد الرحمان الأبنودي، نكتفي منها بنموذج:

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٥٢.

" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين / شوف الأول فين والتاني فين؟ وأدى الخط ما بين الاتنين بيفوت / أنتم بعتم الأرض بفاسها.. بناسها / في ميدان الدنيا فكيتوا لباسها / بانت وش وضهر / بطن وصدر / والريحة سبقت طلعة أنفاسها / وأحنا أولاد الكلب الشعب / احنا بتوع الأجمل وطرقه الصعب..".

تمثل النصوص التي استدعتها الرواية مقاطع من قصيدة "الأحزان العادية" للأبنودي الشاعر الذي اختار الواقعية والالتزام وانحاز إلى البسطاء والمهمشين.

ويمثل المقطع الذي ذكرناه أطروحة الرواية. فالشعب الواحد (هل هو مصر كما صرحت بذلك الرواية؟ إنه أوسع من ذلك) انقسم إلى شعبين انعزل الأول في يوتوبيا يستأثر بخيرات البلاد ويحرسه المارينز، وانتشر الثاني في محيطها ينهشه الفقر والمرض. وامتد بين الشعبين جدار سميك مادي ونفسي. أما المادي فهو الحواجز والجدران والصحراء والأنفاق وأما النفسي فهو الحقد الطبقي الأعمى الذي ولد الرغبة في الاغتصاب والقتل وتشويه الأجساد[1].

يقول جابر في مشهد محاولة اغتصاب جرمينال: "هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه.. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف.."

ويسخر علاء من جابر الأحمق الساذج ويشرب على نخب ذراعه التي قطعها وحنطها وقدمها إلى أصحابه دليلا على "رجولته"، ويتوعد "الشعب الثاني" بمزيد من الاستباحة والإذلال..

وإذا كان نص بريشت الذي احتل موقع التصدير قد مثل الإطار الإيديولوجي الذي متحت منه رؤية الكاتب، فإن مقاطع أغنية الأبنودي وخاصة الجملة: "احنا شعبين" تمثل، في رأينا، القادح الذي نبه الكاتب، وإن لم يع ذلك، إلى جمالية أن يبني الرواية على مكانين متقابلين (يوتوبيا / محيط الأغيار) ينتميان إلى فضاء واحد. ففي رواية يوتوبيا ينقسم الشعب الواحد إلى شعبين انقساما يتجاوز المجال الجغرافي إلى كل ما يشكل الهوية عادات وسلوكا ولباسا وآدابا ومعمارا. وهما وإن

[1] ينظر: فهمي، **تقنيات السرد**، ص٨٩.

اشتركا في بعض الظواهر كشيوع الجنس والمخدرات.. فإن ذلك لم يكن علامة على وحدتهما[1].

والحقيقة أنه برغم وجود إشارات كثيرة في الرواية تعين هذا الشعب (مصر) فإن أطروحة الرواية قد تنسحب على شعوب وبلدان أخرى كثيرة، بل هي المنطق الذي صار يحكم المجتمع الإنساني عامة. فالعالم بأسره مركز وهامش، وشمال وجنوب..

إن المركز لا يعني مكانا واقعا في القلب أو الوسط بالمعنى الهندسي وإنما هو المكان الذي تتمركز فيه كل عناصر القوة وأدوات الهيمنة، أما الهامش فهو الضعف والتبعية والعيش على الكلاب السائبة..

على هذا "المنطق" شيد معمار رواية يوتوبيا. فيوتوبيا مكان الأثرياء في الساحل الشمالي أما بلاد الأغيار فهي في الجنوب، وما بينهما صحراء ومسالك على الأرض وتحتها[2].

تتجلى قوة يوتوبيا في ما تملكه من ثروات وفي طبيعة معاملاتها مع الهامش. فهي تفتح أبوابها لليد العاملة الرخيصة، وتدفع بمنتوجاتها المغشوشة وبما زاد عن حاجتها إلى أسواق الخردة في الهامش. بل إن نشأة الهامش كان تزامن مع ميلاد يوتوبيا.

التقارير الصحفية والإحصائيات

اعتمد المؤلف تقنية التضمين ليدرج ضمن خطاب الشخصيات تقارير صحفية وإحصائيات على سبيل الاستطراد والاستشهاد تعالج ظواهر مثل العنف والفقر في المجتمع وتشرح أسبابها وتوضح تجلياتها.. (ص ٥٢، صص٨١.٨٣، ص ١٣٧..). وهي تقنية قوت فنيا الوظيفة الحجاجية في خطاب الشخصية الراوية، وأثرت النص في مستوى أبعاده السياسية والاجتماعية..

[1] ينظر: أبو السعود، **اليوتوبيا**، ص٥٩.
[2] ينظر: رشدان، محمد، **المكان في الرواية العربية**، دار الفاروق، الدوحة، ٢٠١٤، ص٢٤.

على هذا النحو كسرت اجراءات التناص الحواجز بين أنماط الخطاب في النص الروائي، وكثفت حوارية الأصوات فيه، ومنحت معماره ما به يكون فسيفسائيا ثريا ومفتوحا على مغامرة التأويل.

ثالثا: العجائبي في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق

قوام "اليوتوبيا" الرئيس هو الخيال، والسبب الذي دفع بالروائيين إلى العدول عن الكتاب في هذا الموضوع يكمن في انعدام وجود المدينة المثالية في الواقع، لذلك تم التعامل مع موضع "يوتوبيا" بنوع من الحذر.تقوم "اليوتوبيا على مبدأ «يبحث عن سعادة الجنس البشري من خلال الرفاهية المادية، وإذابة فردية الإنسان في المجموع، وفي مجد الدولة».

وهكذا فإن تحقق هذا المبدأ ينتج عنه مجتمعا مثاليا يسوده العدل والمساواة، وتنعدم فيه الفوارق بين الناس، وقد كانت البدايات الأولى لهذه الفكرة عند اليونان وبالتحديد عند أفلاطون في كتابه "الجمهورية" الذي بناه على تصور مثالي تنعدم فيه الفوارق بين الناس، ثم انتشرت هذه الفكرة عالميا، وانتقلت فيما بعد إلى الإبداع الروائي[1].

يعد العنوان المفتاح الرئيس الذي يستند إليه القارئ لمعرفة مضمون النص، لذلك يحرص الروائي على اختيار العناوين التي تجذب انتباه القاري، فمن خلالها يروج لعمله الإبداعي، وقد توصل "أمبيرتو إيكو" إلى أن «مفتاح التأويل يلتصق بالعنوان». فمن خلال العنوان تتضح دلالة النص الروائي، فمثلا عند قراءة عنوان رواية الأمير لواسيني الأعرج. يتضح لنا أن متن هذا النص الروائي يتضمن نظام الحكم، والأمر نفسه ينطبق على رواية "يوتوبيا" فهذا العنوان يثر نوعاً من الحيرة لدى القاري لتدفعه إلى التساؤل عن معنى يوتوبيا، وعن أسباب اختيار هذا العنوان،

[1] ينظر: يوسف، **السرد**، ص٨٠.

ومدى مطابقته لمتن الرواية، هذا الأمر لا يمكن تفسيره إلا من خلال ولوج عالم الرواية، ومن هنا يتمكن القارئ من اكتشاف أسرار هذه الرواية، وقيمها المتعددة.

يوتوبيا اسم يطلق على المدينة الفاضلة التي يسودها العدل والمساواة ويعيش أفراد حياة مثالية، ويبدو أن الروائي "أحمد خالد توفيق" اعتمد في بناء أفكاره حول هذه المدينة الفاضلة على أفكار أفلاطون في كتابه "الجمهورية"، وتدور أحداث هذه الرواية في مدينة "يوتوبيا"، والتي تمثل مدينة الأغنياء يحرسها رجال "المارينز الأمريكان". وهي فكرة مستوحاة من فيلم أمريكي.

يلخص مشهد فيلم "الفصيلة" (Platoon) فكرة الفيلم، الفكرة التي قالها بطل الفيلم في النهاية: "إن عدو الجيش الأمريكي ليس هو جيش فيتنام إنما عدوهم من داخل جيشهم من بني جلدتهم، وعندما سقط وليام دافو وهو يحاول الهرب من الجيش الفيتنامي وفوقه طائرات تحمل كتيبته المهزومة، كان يلخص العالم الجديد، الذي يحكمه "المشهد" بينما يراوغ جوهره حول الفراغ، معلنا سقوط القيم والأخلاق واعتلاء الصراع كقيمة عظمى، بينما يبدو الموت هو الحقيقة الوحيدة في ذلك العالم الهش، وهو النتيجة الحتمية لشكل التعايش الوحيد الذي تحدده أدوار الصياد".

تساءل الكثير من النقاد عن استخدام خالد توفيق لذلك النص من الشعر المسرحي لبرتولت بريخت[1]:

[1] ينظر: يوسف، **السرد**، ص٩٨.

"حقا إنني أعيش في زمن أسود..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة..

والذي ما زال يضحك..

"لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب"..

أي زمن هذا؟" (توفيق، يوتوبيا، 2008، صفحة 3).

قال جميل شاكر"تأثر أحمد خالد توفيق بالثقافة الأوروبية وكثرة اطلاعه بحكم عمله مترجما" إلا أن الرواية نفسها تفصح عن سبب استخدام المؤلف لذلك النص، يقول: «النص يوحي أن الرواية منذ البداية ستلعب على حبال المتناقضات، وسترقص على الدركات بين الجوهر والصورة أو بين صورتين للفكرة نفسها، سيقوم فتى يوتوبيا برحلة يكون فيها الصياد، ليقبض على فريسة سهلة من اللحم البشري عديم القيمة بالقاهرة، فيتحول الصياد إلى فريسة، وتنعكس الأدوار، ثم تعود لتنقلب الأمور مرة أخرى بين الصياد والفريسة، كأنها لعبة مستمرة تُشكل نظام الحياة في مصر».

ومن أهم شخصياتها الشاب اليوتوبي علاء الذي سئم من حياة الرفاهية وصديقته "جيرمينال" التي رافقته أثناء مغادرته لمدينة يوتوبيا، وجابر الذي كان شابا فقيراً ينتمي إلى سكان مدينة الأغيار، وكان قد استضاف علاء وجيرمينال في بيته وكان نموذج الشخصية المثقفة، وقد قرر الانتقام من مدينة "يوتوبيا" وسكانها من خلال محاولته لاغتصاب "جيرمينال"، وشقيقته صفية التي كانت صفاتها تقترب من صفات الحيوانات.

تتضمن هذه الرواية الأحداث التي ستعيشها مصر عام ٢٠٢٣م، حيث ينقسم الناس على طبقتين الطبقة الأولى هي الطبقة التي تعيش حياة الرفاهية، ويقطن سكانها في مدينة "يوتوبيا"، «وقد انتشر فيها المخدرات بمختلف أنواعها، حتى أضحى سكانها لا يميزون بين الحلال والحرام، وبعد أن أفلست كل مدن البترول، أصبحت هذه المدينة تتمتع بالمادة الكيميائية المسماة بالبايرول"، والتي تم اكتشافها من طرف أمريكا وقامت ببيعها للمدينة المثالية يوتوبيا».

والطبقة الثانية طبقة تعيش حياة الفقر المدقع في مدينة الأغيار، «تتجسد ثنائية الأنا والآخر فالأغنياء في المركز والفقراء في الهامش، فعلاء في هذه الرواية كان يصطاد الفقراء فهم كانوا بمثابة الحيوانات لا قيمة لهم، وكل الصفات السيئة لصيقة بهم»، وعندما ذهب علاء وجيرمينال إلى أرض الأغيار التقيا بالشاب المثقف جابر والذي روى لهما حادثة فقدانه لقرنية عينه نتيجة شجار عنيف من أجل فتاة، وقص عليهما تجاربه مع نساء أخريات، وقد حفلت هذه الرواية بالعديد من القصص المشوقة التي تجعل لقارئ يغوص في أحداثها.

اتسمت العلاقات العاطفية في "يوتوبيا" بالهشاشة، حيث كانت: كل جلسة تضم كبار القوم في مدينة يوتوبيا، وهذا المجتمع اليوتوبي من علية القوم أنتج قوانين ومحاكم خاصة به، والأخطاء هنا أن تتعدى أو تدمر ملك فردي لآخر من المجتمع اليوتوبي أو تعتدي عليه.

ولسكان مدينة "يوتوبيا" قوانينهم الخاصة التي يسيرون وفقها، وأي خطأ يترتب عنه فقدان الملكية الفردية، كما ينادي الأطفال أولياءهم بأسمائهم، إضافة إلى أن الأطفال يتصرفون بحرية تامة، ولا يلتزمون بأوامر أولياءهم.

كان سكان هذه المدينة يصطادون الفقراء ويتخذونهم كوسيلة للعب لينتهي الأمر بقتلهم، حيث جسدت هذه الرواية ثنائية الأنا والآخر، إذ كان سكان يوتوبيا

ينادون الفقراء بالأغيار، وبالتالي قاموا بالسيطرة عليهم وجعلهم عبيدا لهم، فالأغيار في هذه الرواية يظهرون في أقبح الصور.

حالة الفقر التي كانوا يعيشونها جعلتهم مثل الوحوش لا يفقهون شيئا، وتجردوا من إنسانيتهم، حيث طغى العنف على سلوكاتهم، حيث خضع أولئك الأغيار إلى نسق العبودية والتوحش، وبالتالي فهم أقل شانا من الأنا والمتمثلة في الذات اليوتوبية.

فالأغيار لا يتمتعون بأبسط حقوقهم، وسلبت منهم حريتهم وممتلكاتهم، مسكوت عنهم في المجتمع، حكم عليهم أن يعيشوا في كنف الرق والعبودية، وهذا يبين لنا أن هنالك فرقا شاسعا بين الحياة التي يعيشها سكان "يوتوبيا" وحياة الأغيار.

سكان مدينة الأغيار تعرضوا للإبادة الجماعية، هذا ما ولد لديهم روح الانتقام، حيث عزم أخو "عزوز" على قطع يد كل شخص صادفه من مدينة "يوتوبيا"، وبالرغم من أن سكان مدينة "يوتوبيا" يملكون السلطة وهم أصحاب النفوذ إلا أنهم كانوا يخافون من ثورة الأغيار عليهم، وقد ظهر الأغيار في هذه الرواية بصفات تقترب من صفات الحيوانات.

أما فيما يتعلق الأمر بالجانب الديني، فقد أصبح الدين مجرد موضة يلجأ إليها الأغنياء قصد تلبية حاجياتهم، وخوفا منهم من فقدان ممتلكاتهم «عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة إلى للعمرة لا تتوقف، لكن السبب. كما أعتقد. هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة» (توفيق، يوتوبيا، ٢٠٠٨، صفحة ١٢٤). فمقابل تدينهم وأدائهم لمناسك العمرة نجدهم يتعاطون المخدرات، يغتصبون النساء، يشربون الخمر، ويغرقون في مختلف الملذات، علاقاتهم العائلية هشة للغاية تنعدم فيها مختلف الفضائل الأخلاقية، فانعدام القيم الفاضلة في رواية "يوتوبيا" يجعلها تصنف ضمن الديستوبيا. كما أن انتشار ظاهرة القمع والقتل وإلحاق الأذى بالآخرين ليس من مميزات المدينة الفاضلة.

الخاتمة:

وفي الختام جسد "أحمد خالد توفيق" في روايته "يوتوبيا" الصراع القائم بين المدينة الفاضلة ومدينة الأغيار، فالأولى غنية من الناحية المادية لكنها فقيرة من الناحية الأخلاقية، والثانية يسودها الفقر، والبؤس، والحرمان، وبما أن مدينة "يوتوبيا" تعيش حياة الرفاهية، وغارقة في ملذات الحياة، فهي تحتل المركز وينظر سكانها إلى أفراد مدينة الأغيار على أنهم همجيين، وصفاتهم تقترب من صفات الحيوانات لذلك ما عليه سوى خدمة الأنا والخضوع إلى هيمنتها، وسيطرتها.

سعى "أحمد خالد توفيق" في رواية "يوتوبيا" إلى الكشف عن مستقبل مصر من خلال رصد الهوة بين الأغنياء والفقراء، وعبّر عنها بطريقة خيالية، كما أن عنوان هذه الرواية كسر أفق انتظار القارئ، فعند قراءة العنوان لأول وهلة يتبادر إلى ذهن الملتقي أن الروائي يعبر عن المدينة الفاضلة ومميزاتها، لينصدم في الأخير بأن "يوتوبيا" مدينة فاسدة.

تنوعت أنماط الأمكنة في رواية يوتوبيا ما بين ثنائية المكان الواقعي والمتخيل والمكان الأليف والمعادي والمكان المفتوح والمغلق.

المصادر والمراجع:

بوسنة، سعيدة، **الرواية الفانتازية رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق أنموذجا،** (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب واللغات، جامعة جيجل، الجزائر، ٢٠٢٠.

توفيق، أحمد خالد، **يوتوبيا**، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٢٠.

جرموني، إيمان، **الصراع الطبقي في رواية يوتوبيا**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية الآداب واللغات، جامعة بجاية، الجزائر، ٢٠٢٠.

عبد السلام، محمد حسن، **البنية السردية في الرواية العربية**، دار شعلة الإبداع، القاهرة، ٢٠٢٢.

حسيني، عبد الله، "أدب الخيال العلمي الاجتماعي في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق"، **مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها**، ع٦٤، ٢٠٢٢، ١- ٣٣.

رشدان، محمد، **المكان في الرواية العربية**، دار الفاروق، الدوحة، ٢٠١٤.

أبو السعود، عطيات، **اليوتوبيا**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧.

شاهين، أسماء، **جماليات المكان في الرواية العربية**، دار فارس، عمان، ٢٠٠١.

فتاح، علي عبد الرحمن، "تقنيات بناء الشخصية في رواية ثرثرة فوق النيل"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة بغداد، العراق، ع١٠٢، ٢٠١٢.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
أولا: لمحة عامة عن اليوتوبيا	٣
مفهوم اليوتوبيا	٣
أعلام اليوتوبيا	٦
يوتوبيا أحمد خالد توفيق	١٣
التقارير الصحفية والاحصائيات	٢٣
الخاتمة	٢٩
المصادر والمراجع	٣٠